من الأدب التحليلي

الوحـــــــدة

« مهداة إلى الدكتور إبراهيم مدكور »

للأستاذ علي الطنطاوي

« ... إن كل عناء في الحياة مصدره أننا نحيا منعزلين . وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة »
جي دوموباسان (الرسالة ٢١٠)

ما آلمني شيء في الحياة ما آلمتني الوحدة . كنت أشعر كلما انفردت بفراغ هائل في نفسي ، وأحس بأنها غريبة عني ، ثقيلة عليّ ، لا أطيق الانفراد بها ؛ فإذا انفردت بها أحسست أن بيني وبين الحياة صحارى قاحلة ، وبيداً مالها من آخر ، بل كنت أرى العالم في كثير من الأحيان ، وحشاً فاغراً فاه لابتلاعي ، فأحاول الفرار ، ولكن أين المفرّ من نفسي التي بين جنبيّ ، ودنياي التي أعيش فيها ؟

إن نفسي عميقة واسعة ، أو لعلي أراها عميقة واسعة لطول ما أحدق فيها ، وأتأمل جوانبها ، فتخيفني بسعتها وعمقها ، ويرمضني أنه لا يملؤها شيء مهما كان كبيراً ... وهذا العالم ضيق أو لعلي أراه ضيقاً لاشتغالي عنه بنفسي ، وشعوري بسعتها ، فأراه يخنقني بضيقه ...

إني أجمع العالم كله في فكرة واحدة أزمها في زاوية من زوايا نفسي ، في نقطة صغيرة من هذا الفضاء الرحيب ، ثم أعيش في وحدة مرعبة أنظر ما يملأ هذا الفضاء ...

إني كلما انفردت بنفسي ، فتجرأت على درسها ، والتغلغل في أعماقها ، بدت لي أرحب وأعجب . فما هذا المخلوق الذي يحويه جسم صغير ، لا يشغل من الكون إلا فراغاً ضيقاً كالذي يشغله صندوق أو كرسي ... ويحوي هو (المكان) كله ، ويشمل (الزمان) ، وينتقل من الأزل إلى الأبد في أقل من لحظة ، وينتظم (الوجود) كله بفكرة ، وتكاد الحياة نفسها تضل في أغواره ؟

من المستحيل أن نفهم هذا المخلوق الذي ندعوه (النفس) ؛ لذلك نخاف الوحدة وننفر منها . إننا نخشى نفوسنا ، ولا نستطيع أن ننفرد بها ، فنحب أن نشتغل عنها بصحبة صاحب ، أو حب حبيب ، أو عمل من الأعمال ... ونخشى الحياة ، ونحب أن نقطعها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو غير ذلك مما نملأ به أيامنا الفارغة . وإذا نحن اضطررنا مرة إلى مواجهة الحياة ، ومقابلة الزمان خالياً من ألهية تلهو بها ، كما يكون في ساعة الانتظار مللنا وتبرمنا بالحياة وأحسسنا بأن الفلك يدور على عواتقنا . أفليس هذا سراً عجيباً من أسرار الحياة : يكره المرء نفسه ويخشاها ، وهي أحب شيء إليه ؛ ويفر منها ... ويضيق بحياته ، وهي أعز شيء عليه ، ويسعى لتبديدها وإضاعتها ؟

* * *

عجزت عن احتمال هذه الوحدة ، وثقل عليّ هذا الفراغ الذي أحسه في نفسي ، فخالطت الناس ، واستكثرت من الصحابة . فوجدت في ذلك أنساً لنفسي ، واجتماعاً لشملي ، فكنت أتحدث وأمرح وأمزح وأضحك وأضحك ، حتى ليظنني الرائي أسعد خلق الله وأطربهم ؛ بيد أني لم أكن أفارق أصحابي وأنفرد بنفسي ، حتى يعود هذا الفراغ الرهيب ، وترجع هذه الوحدة الوحشة

انغمست في الحياة لأملأ نفسي بمشاغل الحياة ، وأغرق وحدتي في لجة المجتمع ، واتصلت بالسياسة وخبت فيها ووضعت وكتبت وخطبت ، فكنت أحس وأنا على المنبر بأني لست منفرداً وإنما أنا مندمج في هذا الحشد الذي يصفق لي ويهتف ... ولكني لا أخرج من النديّ ويرفض الناس من حولي ، وأنفرد في غرفتي حتى يعود هذا الفراغ أهول مما كان ، وترجع الوحدة أثقل ، فكأنها ما نقصت هناك إلا لتزداد هنا ، كالماء تسد مخرجه فينقطع ، ولكنك لا ترفع يدك حتى يتدفق ما كان قد اجتمع فيه ... فماذا يفيدني أن أذكر في مائة مجلس أو يمر اسمي على ألف لسان ، وأن يتناقش في الناس ويختصموا ، إذا كنت أنا في تلك الساعة منفرداً مستوحشاً متألما ؟ ..

وجدت الشهرة لا تفيد إلا اسمي ، ولكن اسمي ليس مني ، ولا هو (أنا) فأحببت أن أجد الأنس بالحب وأن أنجو به من وحدتي ، فلم أجد الحب إلا اسماً لغير شيء ، ليس له في الدنيا وجود ، وإنما فيها تقارب أشباح :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان ؟

وألثم فاها كي تزول سبابتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين تلتقيان

ولكن أنى تلتقي الأرواح ؟ وأين هذا الحب الجارف القوي الخالص الذي يأكل الحبيبين كما تأكل النار المعدن ، ثم تخرجهما جوهراً واحداً مصفى نقياً ما فيه (أنا) ولا (أنت) ولكن فيه (نحن) ؟...

فنفضت يدي من الحب ، ويئست من أن أرى عند الناس الاجتماع المطلق ، فعدت بطوعي أنشد الوحدة المطلقة

* * *

صرت أكره أن ألتقي بالناس ، وأنفر من المجتمعات ، لأني لم أجد في كل ذلك إلا اجتماعاً مزيفاً : يتعانق الحبيبان ، ولو كشف لك عن نفسيهما لرأيت بينهما مثل ما بين الأزل والأبد ؛ ويتناجى الصديقان ، ويتبادلان عبارات الود والإخاء ، ولو ظهر لك باطنهما لرأيت كلا منهما يلعن الآخر ؛ وترى الجمعية الوطنية ، أو الحزب الشعبي ، فلا تسمع إلا خطباً في التضحية والإخلاص ، ولا ترى إلا اجتماعاً واتفاقاً بين الأعضاء ؛ ولو دخلت في قلوبهم لما وجدت إلا الإخلاص للذات ، وحب النفس ، وتضحية كل شيء في سبيل لذة شخصية أو منفعة !

وجدتني غريباً بين الناس فتركت الناس وانصرفت إلى نفسي أكشف عالمها ، وأجوب فيافيها وأقطع بحارها ، وأدرس نواميسها وجعلت من أفكاري وعواطفي أصدقاء وأعداء ، وعشت بحب الأصدقاء وحرب الأعداء ...

* * *

إن من حاول معرفة نفسه عرضت له عقبات كأداء ، ومشقات جسام ، فإن هو صبر عليها ، بلغ الغاية ، وما الغاية التي تطمئن معها النفس إلى الوحدة ، وتأنس بالحياة ، وتدرك اللذة الكبرى إلا الغاية إلا معرفة الله

وسيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة حتى يتصلوا بالله ويفكروا دائماً في أنه معهم ، وأنه يراهم ويسمعهم ، هنالك تصير الآلام في الله لذة ، والجوع في الله شبعاً ، والمرض صحة ، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة . هنالك لا يبالي الإنسان ألا يكون معه أحد ، لأنه يكون مع الله

علي الطنطاوي

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٣ —

وقد كان لهذه القصائد في نصرة أهل البيت وتأليب الناس على بني مروان أثرها في النفوس ، حتى لهج بها الخاصة والعامة ، وصار الناس يتقربون إلى الله والرسول بحفظها وتلاوتها ويتناقلون في ذلك رؤى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان الكميت يرى بعضها ، وكان غيره يرى بعضاً آخر منها ، فارتفعت بهذا منزلة الكميت وعلت درجته بين قومه بني أسد حتى كانوا يعدونه من مفاخرهم ، ويقولون : فينا فضيلة ليست في العالم ، ليس منزل منا إلا وفيه بركة ورائة الكميت ، لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال له أنشدني :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ

فأنشده فقال له : بورك وبورك قومك

ويروى من طريق آخر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه وهو مختف بعد أن هرب من سجن بني مروان فيما سنذكره من سيرته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما خوفك ؟ فقال : يا رسول الله من بني أمية ، وأنشده :

ألم ترني من حُبِّ آل محمدٍ أروح وأغدُو خائفاً أترقّبُ

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اظهر فان الله قد أمنك في الدنيا وفي الآخرة

وحدث ابراهيم بن سعد الأسدي قال : سمعت أبي يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال : من أي الناس أنت ؟ قلت : من بني أسد ، قال : من أسد بن خزيمة ؟ قلت : نعم ، قال : أهلالي أنت ؟ قلت : نعم ، قال : أتعرف الكميت بن زيد ؟ قلت : يا رسول الله عمي ومن قبيلتي ، قال : أتحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال أنشدني :

طَرِبت وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ